

72 - السيدة أم ذر



زوجة الوفي الصادق

أم ذر رضي الله عنها زوج الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، واسمه جندب بن جنادة، كانت قبيلته تقطع على الناس طريقهم، فتسلبهم حيناً أموالهم، وأحياناً أرواحهم.

روى البخاري قصة إسلام أبي ذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرَّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِأَخِيهِ، ازْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي، فَأَعْلَمَ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْخَبْرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعُ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ اثْنِي، فَانْطَلَقَ الْأَخُ حَتَّى قَدِمَهُ، وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ، فَقَالَ لَهُ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَكَلَاماً مَا هُوَ بِالشَّعْرِ، فَقَالَ: مَا شَفَيْتَنِي مِمَّا أَرَدْتُ، فَتَرَوُدُ وَحَمَلَ سِنَّةً لَهُ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَأَتَى الْمَسْجِدَ، فَالْتَمَسَ النَّبِيَّ ﷺ وَلَا يَعْرِفُهُ، وَكَرِهَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ حَتَّى أَدْرَكَهُ بَعْضُ اللَّيْلِ، فَأَضْطَجَعَ، فَرَأَهُ عَلِيٌّ فَعَرَفَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فَلَمَّا رَأَهُ تَبِعَهُ، فَلَمَّ يَسْأَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَصْبَحَ.

ثُمَّ اخْتَمَلَ قَرِيبَتَهُ وَرَادَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَظَلَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَا يَرَاهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَمْسَى، فَعَادَ إِلَى مَضْجَعِهِ، فَمَرَّ بِهِ عَلِيٌّ رضي الله عنه فَقَالَ: أَمَا نَالَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَهُ؟ فَأَقَامَهُ فَذَهَبَ بِهِ مَعَهُ لَا يَسْأَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ.

حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الثَّلَاثِ فَعَادَ عَلِيٌّ عَلَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ فَأَقَامَ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُحَدِّثُنِي مَا الَّذِي أَقْدَمَكَ؟ قَالَ: إِنْ أُعْطِيتُنِي عَهْداً وَمِيثَاقاً لَتُرْسِدَنِي فَعَلْتُ، فَفَعَلْتُ، فَأَخْبَرَهُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ حَقٌّ وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَاتَّبِعْنِي،

فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ شَيْئًا أَخَافُ عَلَيْكَ قُمْتُ كَأَنِّي أُرِيقُ الْمَاءَ، فَإِنْ مَضَيْتُ فَاتَّبِعْنِي حَتَّى تَدْخُلَ مَدْخَلِي، فَفَعَلَ فَاَنْطَلَقَ يَتَقَمُّهُ.

حَتَّى دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَدَخَلَ مَعَهُ فَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ وَأَسْلَمَ مَكَانَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: اَرْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِي» قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُضْرَخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ.

فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ، فَتَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ الْقَوْمُ فَضْرَبُوهُ، حَتَّى أَضْجَعُوهُ، وَآتَى الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ قَالَ: وَبَلَّكُمْ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ غِفَارٍ وَأَنَّ طَرِيقَ تَجَارِكُمْ إِلَى الشَّامِ؟! فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ عَادَ مِنَ الْغَدِ لِمِثْلِهَا، فَضْرَبُوهُ وَثَارُوا إِلَيْهِ فَأَكَبَّ الْعَبَّاسُ عَلَيْهِ⁽¹⁾.

وعاد أبو ذر إلى قومه بإسلامه، فأخبر زوجته أم ذر بما حدث معه في مكة، فما ترددت في متابعته، وأعلنت إسلامها.

محبة النبي ﷺ لهما

وأحب رسول الله ﷺ أبا ذر فقربه وأدنا، حَدَّثَ أَبُو زُمَيْلٍ - هُوَ سِمَاكُ بْنُ الْوَلِيدِ الْحَنَفِيُّ - عَنْ مَالِكِ بْنِ مَرْثَدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ، وَلَا أَقَلَّتِ الْعَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ وَلَا أَوْفَى مِنْ أَبِي ذَرٍّ، شِبْهِ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ» فَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَالْحَاسِدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَتَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَاغْرَفُوهُ لَهُ»، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ رَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ: «أَبُو ذَرٍّ يَمُشِي فِي الْأَرْضِ بِرُهْدِ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»⁽²⁾.

(1) رواه: البخاري/كتاب: المناقب/باب: إسلام أبي ذر الغفاري/برقم: (3572).

(2) رواه: الترمذي/كتاب: المناقب عن رسول الله ﷺ/باب: مناقب أبي ذر الغفاري/برقم:

كان أبو ذرٌ صادقاً في ظاهره وفي باطنه وفي عقيدته، ولم يكن يحب الصدق الصامت، بل كان يريد الجهر به، لأن الصدق موالاة للحق، وتعبيرٌ عنه، فلا ينبغي له أن يستتر.

وقد حمل أبو ذرٌ من رسول الله ﷺ وصيةً رائعة، وكان أبو ذر خيراً متبع لكتاب الله ﷻ، ولسنة مصطفاه ﷺ، وقد سأله ذات يوم رسولُ الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُمْ وَأَيْمَةٌ مِنْ بَعْدِي يَسْتَأْتِرُونَ بِهَذَا الْفِيءِ؟» قال: إِذْنُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ أَضْعُ سِنْفِي عَلَى عَاتِقِي، ثُمَّ أَضْرِبُ بِهِ حَتَّى أَلْقَاكَ أَوْ أَلْحَقَكَ قَالَ ﷺ: «أَوْ لَا أَذُكُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ تَضْبِرُ حَتَّى تَلْقَانِي»⁽¹⁾.

ووعى أبو ذرٌ وصاية رسول الله ﷺ فأعمد سيفه، ولكنه لم يحبس لسانه عن قول الحق، ومحاربة الباطل.

صبرها على الزهد والوحدة:

كانت أمٌ ذرٌ وأبو ذرٌ قد اختارا الكفاف لحياتهما، ولما حانت ساعة الرحيل وبدأ أن أبا ذرٌ حَضَرَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ بِالرَّبْدَةِ بَكَتْ أُمُّ ذَرٍّ، فَقَالَ لَهَا: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَتْ: أَبْيِي لَا يَدُ لِي بِنَفْسِكَ، وَلَيْسَ عِنْدِي ثَوْبٌ يَسْعُكَ كَفْنَا، فَقَالَ: لَا تَبْكِي فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَأَنَا عِنْدَهُ فِي نَفَرٍ يَقُولُ: «لَيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»، فَكُلُّ مَنْ كَانَ مَعِيَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ مَاتَ فِي جَمَاعَةٍ وَفُرْقَةٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرِي، وَقَدْ أَضْبَحْتُ بِالْفَلَاةِ أَمْوْتُ، فَرَأَيْتِي الطَّرِيقَ فَإِنَّكَ سَوْفَ تَرِنَنَ مَا أَقُولُ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ قَالَتْ: وَأَنْتَى ذَلِكَ وَقَدْ انْقَطَعَ الْحَاجُّ؟ قَالَ: رَأَيْتِي الطَّرِيقَ.

قَالَ: فَبَيَّنَّا هِيَ كَذَلِكَ إِذَا هِيَ بِالْقَوْمِ تَخُذُ بِهِمْ رَوَاجِلُهُمْ كَأَنَّهُمُ الرَّحْمُ،

(1) رواه: أبو داود/كتاب: السنة/باب: في قتل الخوارج/برقم: (4132).

فَأَقْبَلَ الْقَوْمَ حَتَّى وَقَفُوا عَلَيْهَا، فَقَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَتْ: امْرُؤٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَكْفُونُهُ، وَتُؤَجِّرُونَ فِيهِ، قَالُوا: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَتْ: أَبُو ذَرٍّ، فَقَدَوَهُ بِأَبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَوَضَعُوا سِيَّاطَهُمْ فِي نُحُورِهَا يَبْتَدِرُونَهُ، فَقَالَ: أَنْبِشُوا أَنْتُمْ النَّفْرُ الَّذِينَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيكُمْ مَا قَالَ، أَنْبِشُوا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ امْرَأَيْنِ مُسْلِمَتَيْنِ هَلَكَ بَيْنَهُمَا وَلَدَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ فَاخْتَسَبَا وَصَبِرَا فَيَرِيَانِ النَّارَ أَبَدًا»، ثُمَّ قَدْ أَصْبَحْتُ الْيَوْمَ حَيْثُ تَرَوْنَ وَلَوْ أَنَّ تُوْبًا مِنْ يُبَابِي يَسْعُنِي لَمْ أَكْفُنْ إِلَّا فِيهِ، فَأَنْشُدْكُمْ اللَّهُ أَنْ لَا يُكْفِنَنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ كَانَ أَمِيرًا أَوْ عَرِيفًا أَوْ بَرِيدًا. فِكُلُّ الْقَوْمِ كَانَ قَدْ نَالَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا إِلَّا قَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ مَعَ الْقَوْمِ، قَالَ: «أَنَا صَاحِبُكَ تُوْبَانِ فِي عَيْبَتِي مِنْ غَزَلِ أُمِّي وَأَجِدُ تُوْبِي هَذَيْنِ اللَّذَيْنِ عَلَيَّ» قَالَ: «أَنْتَ صَاحِبِي فَكْفَنِي» فَكَفَّنَهُ⁽¹⁾.

وفي رواية أن أم ذر وقفت بجثته على الطريق كما أوصاها فمر بها عبد الله بن مسعود مع بعض المؤمنين، فلما عرفه بكى، وقال: صدق رسول الله ﷺ حين قال: «تَمْشِي وَخَدَاكَ، وَتَمُوتُ وَخَدَاكَ، وَتُبْعُثُ وَخَدَاكَ»، ثم واروه التراب.

رحم الله أبا ذرٍّ وأم ذرٍّ، لقد جاء إلى الدنيا زاهدين وغادراها دون أن تتمكن منهما.



(1) رواه: أحمد/كتاب: مسند الأنصار/باب: حديث أبي ذر الغفاري/برقم: (20409).